السنة الأولى المجموعة 02

محاضرة رقم 01

علم البلاغة: المفهوم، النشأة والتطوّر (آراء أهل المشرق والمغرب)

1. مفهوم البلاغة لغة واصطلاحا:

1.1. لغة: جاء في لسان العرب: بلغ الشيء يبلغُ بلوغا، وصل وانتهى، وأبلغه إبلاغا وبلّغه تبليغا والبلاغة الفصاحة، والبَلَغُ البَلْغُ: البليغ من الرجال، رجلٌ بليغٌ وبلْغٌ: حسن الكلام فصيحه ويبلغ بعبارة لسانه كُنَهَ ما في قلبه، والجمع بلغاء، وقد بلُغَ بلاغةً أي صار بليغا، وقول بليغ: بالغ وقد بَلُغَ، والبلاغات الوشايات. والبلاغة تقع صفة للكلام والمتكلم من باب التوسع، وتعرف البلاغة في المعجم الوسيط أنها حسن البيان وقوة التأثير.

2.1. اصطلاحا: اهتم العرب كثيرا بهذا العلم وأولوه الاهتمام والرعاية حتى وصل إلينا اليوم على صورته الناضجة ولو تتبعنا هذا المصطلح عند بعض علماء العربية لوجدنا الآتي:

-تعريف الجاحظ: " لا يكون الكلام يستحقّ اسم البلاغة حتى يسابق معناه لفظه، ولفظه معناه، فلا يكون لفظه إلى سمعك أسبق من معناه إلى قلبك".

-تعريف الخطيب القزويني: "مطابقة الكلام لمقتضى الحال مع فصاحته"

-تعريف ابن المقفع: " اسم جامع لمعانٍ تجري في وجوه كثيرة فمنها ما يكون السكوت، ومنها ما يكون في الاستماع، ومنها ما يكون في الإشارة، ومنها ما يكون في الحديث، ومنها ما يكون في الاحتجاج، ومنها ما يكون جوابا، ومنها ما يكون ابتداءً، ومنها ما يكون شعرا، ومنها ما يكون سجعا وخطبا، ومنها ما يكون رسائل، فعامة هذه الأبواب الوحي والإشارة إلى المعنى، والإيجاز هو البلاغة"

ونبسط مفهوم البلاغة بقولنا: "هي تأدية المعنى الجليل واضحا بعبارة صحيحة فصيحة لها في النفس أثر خلاب، ع ملائمة كل كلام للموطن الذي يقال فيه، والأشخاص الذين يخاطبون.

وبهذا يستند تعريف البلاغة على ثلاث دعائم هي: الوضوح، الإيجاز، مراعاة مقتضى الحال، مناسبة الأسلوب لأحوال المخاطبين، الفصاحة.

2. أهمية علم البلاغة: إن أهمية العربية استنبطت من القرآن الكريم لفهم حلاوة معانيه، ومقاصده، وبيان أسراره وأحكامه، وأخباره، وتفسير آياته الكريمة ومعرفة ما فيها من براعة وعذوبة في اللفظ والتراكيب البلاغية، فهذا العلم يعتبر الوسيلة لمعرفة إعجاز القرآن الكريم لذلك يؤدي الإغفال عنه إلى عدم إدراك إعجاز النظم القرآني، وبالتالي لابدّ من الإلمام بقواعد علم البلاغة التي تجعل الإنسان فصيحا ومتكلما بلسان بليغ.

3. الفصاحة والبلاغة

1.3. مفهوم الفصاحة لغة واصطلاحا: الفصاحة في اللغة خلوص الشيء مما يشوبه، واصله في اللبن، يقال: فَصُحَ اللبن، إذا ذهب عنه اللبأ أي الرغوة التي تغطي سطحه، ومعنى خلوص الشيء مما يشوبه كونه واضحا بيناً، واستعير للدلالة على البيّن والواضح من القول. ويقال أفصح الصبي في منطقه إذا بان وظهر كلامه، فالمعنى اللغوي للفصاحة من خلال هذه الأمثلة هو البيان والوضوح فكل ما كان بيّنا واضحا، فهو فصيح، سواء أكان كلاما أم غيره.

أما الفصاحة في الاصطلاح، فهي الألفاظ البينة الظاهرة المألوفة في الاستعمال بين الكتاب والشعراء، وهي تقع وصفا للكلمة والكلام والمتكلم.

وتتحقق فصاحة الكلام بخلوه من هذه العيوب: **-تنافر الكلمات مجتمعة وثقلها على اللسان،** مثل قول الشاعر: وَقَبْرُ حَرْبٍ بِمَكَانٍ قَفْرٍ وَلَيْسَ قُرْبَ قَبْرِ حَرْبٍ قَبْرُ
ذكر معظم البلاغيين والنقّاد أن النصف الأخير من البيت بعض ألفاظه يتبرَّأ من بعض. ولقد نشأ هذا التبرُّؤ أو التعثُّر من ضمِّ هذه الكلمات بعضها إلى بعض ومن تكرُّر حروف القاف والراء والباء وتردُّدها في الكلمات الثلاث على هذا الترتيب مع اختلاف موضعها، مما أدَّى إلى أن يصبح الإنشاد مؤونة على المُنشِد؛ لفقدان تجاوب الأصوات الداخلية في السياق اللغوي، وتعثُّر النطق بالكلام.
-ضعف التأليف، أن يكون الكلام جاريا على خلاف القوانين النحوية والصرفية، كوصل الضميرين وتقديم غير الأعرف منهما على الأعرف مع أنه يجب الفصل في تلك الحالة، كقول المتنبي:
خَلَتِ البِلادُ منَ الغَزالَةِ لَيْلَها فأعاضَهاكَ اللهُ كَيْ لا تَحْزَنَا
-التعقيد بنوعيه اللفظي والمعنوي.

2.3. الحدود بين البلاغة والفصاحة: لم يفرق كثير من العلماء بين البلاغة والفصاحة، وفي رأيهم تدلان على مقصود واحد، لكن هناك حدود تفصل بين البلاغة والفصاحة، منها: تختصّ البلاغة بالألفاظ والمعاني، بينما مجال الفصاحة هو الألفاظ فقط. تراعي البلاغة الأسلوب المناسب للمخاطبين بينما تختصّ الفصاحة بالكلمة المفردة والكلام المركّب. الفصاحة شرط أساسيّ من شروط البلاغة، أما من شروط الفصاحة: الوضوح والبيان، الألفة والانسجام، التوافق التام مع قواعد النحو والصرف.

4. آراء أهل المشرق والمغرب في علم البلاغة

1.4. البلاغة عند الجاحظ (كتاب البيان والتبيين أنموذجا): ركز الجاحظ في كتاب "البيان والتبيين" على مجموعة من النقاط يمكن الاهتداء والرجوع إليها خلال عمليّة استكشاف ما حولها من خطب وأمثال وشعر وأخبار ومناقشات نقدية.

دافع الجاحظ عن العرب ضد الشعوبيين، وفي هذا الكتاب، أشار إلى بعض الفنون البلاغية كالاستعارة والتشبيه والكتابة والإيجاز والإطناب. وعرف البيان بقوله: "اسم جامع لكل شيء كشف لك قناع المعنى وهتك الحجب دون الضمير". كما أشار إلى أن البديع من خواص العرب، ومنه الاستعارة والتشبيه والكناية، كما ذكر موضوعات، أخرى كبراعة المطلع والسجع والاقتباس وغير ذلك.

وهذه الفنون البلاغية التي ذكرها الجاحظ مبثوثة في تضاعيف الكتاب لا توجد إلا بالتأمل الطويل والتصفح الكثير لكتاب البيان والتبيين.

والجاحظ من أهم العلماء الذين أسهموا في وضع أسس البلاغة في بداياتها.

2.4. ابن قتيبة في كتابه تأويل مشكل القرآن: من تلاميذ الجاحظ ألف كتاب تأويل مشكل القرآن رد فيه على الطاعنين في لغة القرآن وأسلوبه.

وقد تحدث فيه عن العرب وما خصهم الله به من قوة البيان، وتحدث عن وجوه إعجاز القرآن، كما أشار إلى المجاز والاستعارة والقلب والاختصار في الكلام والزيادة فيه، والكناية ومخالفة ظاهر اللفظ معناه.

ويتميز ابن قتيبة عن سابقيه أنه وضع لكل لون من هذه الألوان بابا يخصه. ويبحث في ذلك أدبي ليس فيه التقسيم تحديد المصطلحات.

3.4. ابن المعتز في كتابه البديع: يحمل كتاب البديع قيمة كبيرة في تاريخ البلاغة إذ كان خطوة في تطورها وتقدمها، فقد استقل بذكر أنواع بذكر أنواع البديع، والبديع عنده يختلف عما عرف لدى المتأخرين

من علماء البلاغة، أنه علم يعرف به وجوه تحسين الكلام، وإنما كان البديع عنده يشمل كثيرا من فنون البلاغة كالاستعارة والتشبيه والكناية والمطابقة والجناس، وقد دعاه إلى تأليف الكتاب تعريفه الناس أن المحدثين من الشعراء لم يسبقوا إلى شيء من هذه الفنون المتقدمين، وهي الفنون التي جاءت في القرآن الكريم والحديث النبوي الشريف. وقد قسم الكتاب قسمين:

الأول البديع وحصره في خمسة فنون، هي: الاستعارة، التجنيس، المطابقة، ورد أعجاز الكلام على ما تقدمها، والمذهب الكلامي.

الثاني هو قسم تناول فيه ابن المعتز ما أسماه بـ"محاسن الكلام" وهي الالتفات اعتراض الكلام، الرجوع حسن الخروج من معنى إلى معنى، تأكيد مدح بمشابهة الذمّ تجاهل العارف، هزل يراد به الجدّ، حسن التضمين، التعريض والكناية، حسن الابتداء وحسن التشبيه، يقول ابن المعتز" ونحن الآن نذكر بعض محاسن الكلام والشعر ومحاسنها كثيرة لا ينبغي للعالم أن يدعي الإحاطة بها".

4.4. الجرجاني وكتابه "الدلائل": يمثل عبد القاهر مرحلة نضج البلاغة العربية واكتمالها، فهو واضع نظرية النظم، وكتاب "دلائل الإعجاز" جاء قمّة فكر العصر وعصارة فكر المؤلّف، وقد ألّفه بعد أن اطّلع على علوم كثيرة وتجدر الإشارة إلى أنّ عمليّة الانتقال من أسرار البلاغة إلى دلائل الإعجاز لا يعني أنّه قام بتغيير الموضوع أو قلب الإشكاليّة، بل اكتفى بإعادة النّظر وتعديل وتكميل بعض القضايا كإضافة الكناية بعد التخلّي عن التشبيه والتمثيل غير المجازي، ليصبح طرفا المعادلة هما: المجاز من جهة والذي حصره في الاستعارة والكناية من جهة أخرى.

أمّا القضيّة الجوهريّة التي نعثر عليها في الكتاب والتي حاول وضع أسسها والتنظير لها فهي: النظم، وقد جاء ذلك كردّة فعل على الخصومات التي دارت لمدّة طويلة من الزمن بين أنصار اللّفظ وأنصار المعنى؟

والجرجاني في نظريّته حاول أن يوفّق بين شقيّ النزاع وهو لم يفضل اللّفظ على المعنى ولا المعنى على اللّفظ بل ربط بينهما ربطا عقلانيا محكما، وبهذا فإنّ نظرية النّظم تعدّ مرحلة جدّ متطوّرة من مراحل الفكر النقدي العربي الذي بدأ يتأسّس منذ القرن الثاني الهجري فالنظم شرف عظيم وليس إلاّ "أن تضع كلامك الوضع الذي يقتضيه علم النحو وتعلم قوانينه وأصوله وتعرف مناهجه التي نهجت فلا تزيغ".

يحظى كتاب الدلائل باهتمام الدارسين وذلك بارتكاز هذه البلاغة على نظرية النظم التي تجعل الكلام الأدبي مخالفا للكلام العادي انطلاقا من نظمه بل واختلاف الكلام الأدبي ذاته في درجات الأدبيّة انطلاقا من النّظم ذاته، فالنظم إذا جوهر الشاعريّة في القول الفنّي ولا ترجع التلاعبات الصوتيّة أو الوجوه البلاغيّة إلى اللّفظ من حيث هو لفظ.

5.4. السكاكي وكتابه مفتاح العلوم: يمثل السكاكي مرحلة التقعيد والتقنين للبلاغة العربية، اهتم بالفلسفة والمنطق، فقام بتقنين قواعد البلاغة العربية مستعينا بقدرته المنطقية على التعليل والتعريف والتفريع والتقسيم، وبذلك تحولت البلاغة العربية على يديه إلى مجرد قواعد وقوانين صيغت في قوالب منطقية جافة باعدت بينها وبين وظيفتها من إرهاف الحس وإمتاع النفس وتربية الذوق وتنمية الملكات. ويعتبر السكاكي أبا للتصوّر المدرسي الذي استقرّ للبلاغة العربيّة من عصره إلى اليوم، ذلك التصوّر الذي يقسم البلاغة إلى ثلاثة علوم: علم المعاني، علم البيان وعلم البديع.

6.4. حازم القرطاجني وكتابه منهاج البلغاء وسراج الأدباء: إن كتاب: منهاج البلغاء وسراج الأدباء، في حد ذاته يمثل قيمة مبتدعة في التأليف النقدي المغربي خصوصا والعربي بوجه أعم، ويتجلى ذلك في النمط الذي اتخذه شكل الكتاب المتناسق في ترتيبه من حيث التبويب، وعنوانات القرطاجني المتفردة بالإضاءة والتنوير.إلى جانب أسلوب الكتابة الذي لا يسهل على باحث مبتدئ ككاتب هذه السطور أن يبلغ

عمقه بسهولة، نظرا للحضور العقلي والفلسفي الواضح في الرؤية النقدية والبلاغة لحازم. هذه الرؤية التي حاولت في الكثير من الأحيان أن تقدم طروحات عالمية ومفاهيم شاملة فيما يتعلق بالعديد من موضوعات النقد، ومن ذلك :ماهية الشعر، والتصور البلاغي، ونظرية التلقي، والتخييل وما إلى ذلك.ومرد هذا إلى انفتاح القرطاجني على مختلف التراكمات الفكرية العلمية التي سبقته، سواء الهيلينية منها، أو اليونانية .وذلك من خلال شروح الفلاسفة العرب لكتابي: فن الشعر والخطابة الأرسطيين، لدى كل من الفارابي وابن سينا وابن رشد.أو الإفادة من موروثات الثقافة العربية من خلال اطلاعه على ذلك التراث الأدبي الثقيل الذي خلفه الأسلاف.

إنّ أهمّ خطوة حذاها حازم في مشروعه هو تفريقه بين الخطابة والشعر على أساس المكوّن المميّز لكلّ منهما، وبهذا استطاع الخروج من دائرة الصدق والكذب التي كانت مدار النّقاش بين البلاغيين إلى الحديث عن التخييل "إذ حاول حازم أن يحسم الإشكاليّة التي توقّف عندها الجرجاني في الأسرار وأبدى فيها وأعاد حتى وُسمت لغته حينا بالتردّد بين مطلب الصدق والكذب أو بين التخييل والصحة العقليّة كما اضطرب فيه ابن سنان متردّدا بين المقام النثري والمقام الشعري.

وبهذا وصلت البلاغة مع حازم قمّة الوعي بذاتها، لذلك لم يجرؤ أحد على إعادة قراءة عمله كما قرئ عمل السكاكي مثلا، إذ بقي مشروعه بعيدا عن الوصفة البلاغيّة التي اقترحها علماء اللّغة العربيّة في بداية هذا القرن للمدارس ثمّ الجامعات العربيّة، الوصفة التي مازالت مقدّسة إلى اليوم.

يمكن القول غي آخر هذا العرض إن الكتب التي صنفها العلماء أرادوا بها خدمة البلاغة العربية والنقد.

5. علوم البلاغة العربية: يطلق اسم الأقسام في اللغة العربية على علوم البلاغة الثلاثة: علم المعاني، علم البيان، وعلم البديع، ولا شك أن البلاغة ذات علاقة وثيقة بعلوم متن اللغة والنحو والصرف، فتلك علوم عربية أوضح ما تكون للمتأمل، ولكن علوم البلاغة إنما اختصت بجانب آخر وهو جانب الاحتراز عن الخطأ في تأدية المعنى المراد، ومن هنا نشأ علم المعاني، وكذلك الاحتراز من التعقيد المعنوي ومن هنا نشأ علم البيان، وإلى المحسنات اللفظية ومن هنا نشأ علم البديع.

1.5. علم المعاني: علم تعرف به أحوال اللفظ العربي التي بها يطابق مقتضى الحال، أو يمكن القول عنه أنه: تتبع خواص تراكيب الكلام في الإفادة وما يتصل بها من الاستحسان وغيره، ليحترز بالوقوف عليها عن الخطأ في تطبيق الكلام على ما يقتضي الحال ذكره. ومباحث علم المعاني ثمانية، هي: أحوال الإسناد الخبري، أحوال المسند إليه، أحوال المسند، أحوال متعلقات الفعل، القصر. الإنشاء، الفصل والوصل، الإيجاز والإطناب والمساواة.

2.5. علم البيان: هو علم يعرف به إيراد المعنى الواحد بطرق مختلفة في وضوح الدلالة، ويتبين من خلال التعريف أنه ثمة طرائق كثيرة للتعبير في اللغة العربية، فهناك تعبير مباشر، وهناك تعبير بلاغي فني، والتعبير الفني البلاغي هو مادة علم البيان، ومباحث علم البيان ثلاثة يتفرع كل واحد منها عدة مباحث، وهي: التشبيه وهو أنواع وأقسام، الحقيقة والمجاز بنوعيه العقلي واللغوي، الاستعارة بأقسامها وأنواعها، الكناية بأقسامها.

3.5. علم البديع: هو القسم الثالث من أقسام البلاغة العربية، وتتمثل مباحثه في: **محسنات معنوية**، وهي أنواع: الطباق، المقابلة، حسن التعليل، التورية، المذهب الكلامي، المزاوجة والمشاكلة، حسن الابتداء وحسن التخلص....إلخ.

محسنات لفظية، وهي أنواع: الجناس، رد العجز علة الصدر، السّجع، المماثلة، الاقتباس والتضمين...إلخ.

وخلاصة الكلام أن علوم البلاغة جميعها تبحث في الجانب الجمالي لنظم الكلام وتأليفه كما تعمل متضافرة لتحقيق غاية مثلى هي: مراعاة المقال لمقتضى الحال بشرط اقترانه بالفصاحة، وهذا يعني أن المعاني والبيان والبديع لابد أن تتوافر على عناصر أساسية هي التأثير والإقناع والحسن من التقيد بسلامة اللفظ والتركيب.